

الافتتاحية: السيكولوجيا من منظور عربي

أ.د. الغالي أحرش - فاس، المغرب

a-rhali@caramail.com - aharchaou_rhali@yahoo.fr

هل صحيح أن السيكولوجيا التي تداولها وتعامل بها في الوطن العربي قد ثابتت وشاركت فيها أفلست من حيث مصادرها ومرجعياتها وتصوراتها إلى الحد الذي أصبح معه الأمر يتطلب تغيير المسار الذي انتهى إلى أسس جديدة تماشياً ومستجدات السيكولوجيا المعاصرة وخاصة في أبعادها المعرفية. ما هي مقومات هذه السيكولوجيا وخصائصها العلمية والتطبيقية؟ ما هي مشاكلها ومعوقاتها وأفاقها المستقبلية في ظل المركبات النظرية والمستجدات المثودولوجية للسيكولوجيا المعرفية الراهنة؟

الأكيد أن انتقال ما ينعت بالسيكولوجيا الحديثة ذات الطابع المعرفي كاتجاه جديد في علم النفس في أوائل السينين من القرن العشرين قد غير بصورة جذرية طريقة تصوّرنا للنفس الإنسانية وأسلوب دراستها. فبرادغتها paradigm المعرفي الذي يعتبر الذهن كمِنْجَعٍ من البرجمة المعلومانية المستعملة للرموز الجردية يشير بوضوح إلى ثورة معرفية حدثت فعلاً في مجال علم النفس. وهي الثورة التي رافقها تحولات عميقة وخاصة على مستوى اتخاذ الذهن في معناه الواسع موضوعاً ومعالجة المعلومات مسبعاً منهاجاً وبالتالي الإقرار بتجاوز عدد من السيكولوجيات السابقة بما فيها السلوكية. فالواقع أن هذه السيكولوجيا التي لم تكن تخذلي بأي حضور قبل أربعة عقود من الآن، أصبحت هي المهيمنة حالياً على خارطة علم النفس. فقد أصبحت تشكل الثورة المعرفية القائمة ذاتها التي لا يتردد أغلب علماء النفس في اتخاذها إطاراً أساسياً للتغيير عن علم النفس بأكمله. وتتحدد أبرز مقومات وخصائص هذه السيكولوجيا التي أصبحت تميز مكونات وتوجهات المنظومة السيكولوجية الحديثة في العناصر الثلاثة التالية:

واللغة والتفكير وحل المشاكل ثم اتخاذ القرار. وبالتالي تعويض التمييز القديم مثلاً بين الذاكرة البعيدة المدى والذاكرة القريبة المدى بالتفريق بين الذاكرة الدلالية التي تقوم بتخزين المعارف وتنظيمها وذاكرة العمل التي تختص بالمعالجة الوقتية العابرة Transitoire؛ حيث تبلورت دراسة الذاكرات المتخصصة مثل الذاكرة اللفظية والصوتية والإدراكيّة. وإذا كانت اللغة أصبحت لوحدها تشكل الحقل المفضل للدراسة بعدما كانت شبه مغيبة، فإن موضوعات أخرى مثل سيرورات الانتباه والحكم والقرار ودور الانفعال والعواطف في المعرفة ثم اختلال الاشتغال المعرفي في حالات الاضطراب والشيخوخة أصبحت هي الأخرى تخذل بقدر الشرف في هذه السيكولوجيا التي يحكمها ويؤطرها البراديغم المعرفي.

2. المنهج والتقنيات

يمكن حصر خصوصيات المنهج السيكولوجي من منظور السيكولوجيا المعرفية المعاصرة في العناصر الخمسة التالية:

أ) توحيد المسعى المنهجي العام عوض التمييز بين مناهج تتعدد وتتنوع بتنوع ميادين علم النفس. فكل هذه الميادين تستند اليوم إلى نفس المسعى المنهجي الذي هو تجريبي، حيث أن القول بسيكولوجيا تجريبية كميadian مستقل ضمن ميادين علم النفس هو قول مردود ولا أساس له من الصحة في المفهوم المعرفي للسيكولوجيا الحديثة. وهذا ما يؤكد لدى غالبية علماء النفس المعاصرين توحيد خارطة علم النفس من خلال تخطيم الحدود المصطنعة بين قاراتها الفرعية وتقرير

1. الموضوع والباحث

فيخصوص موضوع علم النفس لم يعد يتعدد أصلاً في الأشياء الخارجية القابلة للملحوظة من قبيل السلوكيات والمثيرات والوضعيات وعلاقتها، لكون هذه الأشياء ليست إلا وسائل أو وسائل مثودولوجية لدمج هذا الموضوع في المجال الكلي ومقاربة مكوناته وعنصره، بل أضحى يتمثل في جمل الأحداث والوقائع التي تحدث وتحصل في "رأس" الكائن البشري. وبذلك أصبح علم النفس علماً للذهن بعدما كان يشكل علماً للسلوك. فطبعية الموضوع صارت تتحدد في الأنشطة الذهنية كما تحدث في أذهان الكائنات الإنسانية، وبالتالي في كيفية معالجة المعلومات واكتساب المعرفة وتخزينها واسترجاعها واستعمالها.

وقد صاحب هذا التغير في موضوع الدراسة بزوج لمفاهيم جديدة كالتمثيل والمعالجة والاشتغال والمراقبة والتضييط، وهي المفاهيم التي يرتبط بعضها بأسلوب استقبال المعلومات مثل التصفية والترميز Filtrage et Encodage وبعضها بصيغة المعالجة مثل ذاكرة العمل والمعالجة التصادمية في مقابل المعالجة التنازليّة، السيرورة الأطوماتيكية في مقابل السيرورة المراقبة، المعالجة التسلسلية في مقابل المعالجة الموازية، وبعضها باتخاذ القرار والتدخل مثل القصدية والغاية والتخطيط، وبعضها يتصل أخيراً بالاشتغال المعرفي في حد ذاته مثل مفاهيم الوعي والمراقبة والمطامع المعرفية.

وبحخصوص التحول الذي حقق مباحث علم النفس فقد تجلّى في التركيز على السيرورات المعرفية العليا المتمثلة في الإدراك والانتباه والتعلم والذاكرة

فالتمييز بين الوجوداني والمعرفي وبالتالي التركيز على مقاربة مكونات ومظاهر هذا الأخير أصبح يشكل المعطى الواقعي للبحث الذي عرفته العقود الثلاثة الأخيرة. وهو المعطى الذي ينظر إليه كثير من الباحثين كإجراء مقبول على اعتبار أنه ليس من الخطأ، وخاصة من الناحية المنهجية، اعتماد هذا التمييز المؤقت لمعالجة المشاكل بصورة تدريجية، وذلك في انتظار الفترة اللاحقة التي ستشهد بدون شك بلوحة أجياث ونماذج وجودانية- معرفية Affectivo-cognitifs أو معرفية وجودانية، والتي بدأت ملامحها تتأسس وتعزز في الفترة الأخيرة من خلال أعمال ودراسات منتظمة الاطراد ترجمتها وقائع كثيرة.

المنظور الثاني يرى أنه إذا كان النشاط الذهني، كما جاء في المنظور الأول، يتحدد في معالجة المعلومات، فإن هذا النشاط هو في حد ذاته نشاط للدماغ. وهنا يطرح السؤال حول الدلالة الفعلية لهوية العلاقة بين نشاط الدماغ ونشاط الذهن؟. الواقع أن الخل النهائي لهذا المشكل لا وجود له في الوقت الحالي. فكل ما هو موجود إلى الآن هو هذا النوع أو ذاك من النزعات الاختزالية التي تأمل تعويض السيكولوجيا بالبيولوجيا وبالتالي اختزال نشاط الذهن في نشاط الدماغ كما يتجلّى ذلك عند بعض البيولوجيين رغم الرفض المcribique والواضح مثل هذا الاختزال من لدن السيكوفيزيولوجيين والبيوعصبيين.

4. الآفاق المستقبلية

الراجع أن مستقبل السيكولوجيا في ظل البراديم المعرفي سيتوقف من جهة على علاقتها العلمية مع تخصصات العلوم المعرفية وفي مقدمتها علوم الأعصاب Les neurosciences، ومن جهة أخرى على الكيفية التي ستطرح وتحل بها عدداً من المسائل المطانظرية ذات الطابع الإبستمولوجي، وعلى رأسها ثلاث إشكاليات أساسية: أولاهما ترتبط بفرضية فودور Fodor (1987) حول قابلية الذهن Modularité de l'esprit وخاصياته الحاسوبية وكل ما يصاحب ذلك من استلزمات معرفية. وثانيتها تتعلق بمعرفة ما إذا كانت التفسيرات السيكولوجية للمعرفية قابلة لأن تختزل بالتدريب في تفسيرات بيوعصبية، وبالتالي إلى أي حد يمكن "تطبيع Naturaliser" الذهن؟. أما ثالثلتها فتخصّ مسألة الاختزالية البيوعصبية هاته التي أضفت عليها تطورات السيكولوجيا العصبية الحديثة، وبخصوص تكنيات التصوير الدماغي Imagerie cébrale، خصوبة أكبر ودعمت اعتقادها القائل بأن التفسير البيوعصبي عوض التفسير السيكولوجي، هو الذي سيسمح بتفصير طبيعة المعرفية وخاصيتها الجوهيرية. بمعنى أن علوم الأعصاب هي التي ستضيء طريق السيكولوجيا في المستقبل. وفي اعتقادنا أن العكس هو الصحيح لأن علم النفس هو الذي سيضيئ طريق هذه العلوم المعرفية عامة.

إذن في إطار الاحتكام إلى ما يشبه هذه المقومات والخصائص التي تنفرد بها الوضعية الحالية للسيكولوجيا المعرفية المهيمنة على خارطة علم النفس، تندرج أهم الاستفسارات

حقولها التخصصية التي كانت قد متباude.

ب) ضرورة اعتماد النماذج والنظريات المضفرة Micro-théories سواء في بعدها الاستقرائي Inductif المبني على الانتقال من الجزيئي الخاص (الواقع والأحداث) إلى الكل العام (التصورات والفرضيات النظرية)، أو في بعدها الاستنباطي Dédactif أو الافتراضي الاستنباطي Hypothético-dédactif المبني على الانتقال من المفاهيم والأفكار إلى المعطيات والواقع.

ج) العمل بنفس المسعى المنهجي المتداول في سائر العلوم، حيث أن ما تم التأكيد عليه في البعدين السابقيين يوضح جلاء تام أن المسعى المنهجي المعتمد في السيكولوجيا الحديثة هو مسعى كل العلوم. وعلى هذا الأساس يمكن مقارنة هذه السيكولوجيا ذات التوجه المعرفي بأي مجال من مجالات البحث، إذ أن طريقتها هي طريقة جميع العلوم ترتكز من جهة على إعداد نماذج تفسيرية انطلاقاً من الملاحظات المجزءة ومن جهة أخرى التتحقق من صدق هذه النماذج من خلال مواجتها بالأشياء القابلة للملحوظة. فالفرق الوحيد الذي ما يزال قائماً بالنسبة للعلوم المسماة بالدقائق يتجلّى في إمكانية إعادة إنتاج الظواهر المدرسة.

د) المسعى العلمي ومسألة الكونية والتعيم

كما سبق التأكيد على ذلك، فإن الكيفية المثلية لتحقيق التطابق المطلوب بين النماذج النظرية والملاحظات الأمريكية تتحدد أساساً في التجريب experimentation. لكن المؤكد أيضاً هو أن الملاحظة في الميدان أو في وضعيات ملموسة يمكنها في بعض الحالات أن تستخدم بشكل جيد حتى بالنسبة للبراديم المعرفي. فكل ما يهدف إليه الباحثون المتبينون لهذا البراديم هو الوصول إلى خلاصات كونية بالمعنى المنطقي للفظ، مثل "يمكن لهذه الأحداث الذهنية او تلك، والتي تمثل مظاهرها القابلة للملحوظة في هذه السلوكات أو تلك، أن تحصل بالنسبة لإي فرد ينتمي إلى الفئة المنطقية (س) ولكن شريطة أن يتحقق ذلك ضمن سياق أو وضعية من الوضعيات المبنية على الفئة المنطقية".

ه) تقوية الترسانة التجريبية وإغباء الأدوات الكلاسيكية بتقنيات جديدة تدرج في إطار ما يسمى باختبارات التشخيص المعرفي والمحاكاة المعرفية وبرامج المساعدة المعرفية والمعالجة المعلوماتية.

3. الطبيعة والواقع

لمناقشة طبيعة الواقع (الموضوع) الذي تدرسها السيكولوجيا المعرفية المعاصرة يمكن الاعتماد على المنظوريين المتكاملين التاليين:

الأول يرى أن الطبيعة العميقه للأنشطة الذهنية كما تحدث في عقول الكائنات الإنسانية، تتحدد أساساً في معالجة المعلومات وبالتالي في اكتسابها وتخزينها واسترجاعها واستعمالها. فهذا المنظور يجسد بما فيه الكفاية الحدود التي يقارب منها البراديم المعرفي الموضوع النفسي، بحيث أنه لا يولي إلى حد الآن أي اهتمام لكل ما يرتبط بالعاطفة، بالدرافع، بالانفعالات وباحتلالات الشخصية. وهذه مسألة كثيراً ما يؤسف لها رغم أن الأمر الواقع هو الذي أصبح يفرض نفسه.

* غربتها عن الواقع العربي ب مختلف مكوناته و مشاكله و تحدياته .

* فراغها من روح الإبداع ومنطق الإنتاج المطابقان لهموم الإنسان العربي وأفكاره ومعتقداته وأحلامه وميولاته ...

* افتقارها إلى أبسط الظروف والشروط الازمة لبناء معارفها العلمية وتوظيفها في المجالات التطبيقية . فالمختبرات قليلة وقليلة جداً ، والبحوث الميدانية ذات الارتباط بالمشاكل التي يواجهها الإنسان العربي ماتزال ضئيلة ، والمؤسسات التربوية والصناعية والصحية ماتزال غير مستعدة للاستفادة من خدماتها .

إذن على أساس هذا التشخيص المقتضب لوضعية السيكولوجيا المتداولة عندنا نشير إلى أنه ورغم أهمية بعض حماولتها وجديّة بعض مسماها الفردية ، فهي ماتزال تتخطى في متاهات ودوائر لا متناهية من المشاكل والصعوبات الموزعة بين ضياع الهوية وحدودية الإبداع وتواضع الاستثمار . إنها ماتزال تعاني من فجوة متعددة الصور والمظاهر بين الإنتاج والاستهلاك وبين الإبداع والمحاكاة ثم بين التنظير والتطبيق ، إلى الحد الذي يستحيل معه القول بقرب انفجار ثورة سيكولوجية عربية ، قوامها المقاربة المباشرة لطوارئنا النفسية التي غالباً ما يُنظر إليها "كتابوات" tabous مقدسة والمساهمة الفعالة في المنظومة السيكولوجية العالمية . ومن هنا نعتقد أن السبيل إلى تجاوز مثل هذه الوضعية المتأزمة يمكن أساساً في العمل على إعادة صياغة منظومتنا السيكولوجية على أساس وقواعد جديدة يؤطرها من جهة منطق التشيع بخصوصيات الواقع العربي وختلف مشاكله ويوجهها من جهة أخرى منطق الاتخاذ في سيرورة السيكولوجيا المعاصرة ومطهر ثورتها المعرفية .

والأسئلة والأجوبة التي يطرحها يقدمها ملف هذا العدد 17 من المجلة الإلكترونية لشبكة العلوم النفسية العربية حول "السيكولوجيا من منظار العالم العربي" ، حيث تنصب أغلب أجراه مقاالته ، رغم حدوديتها الكمية والكيفية وعدم تمثيليتها لواقع السيكولوجيا إلا في أقطار عربية قليلة ، على التعريف بواقع السيكولوجيا العربية ومقوماتها العلمية وخصائصها المعرفية ، ثم الرصد التقريري لبعضها العلمية وآفاقها التطبيقية ، مع التطلع إلى تفعيل وتأسيس هذا الواقع على أساس ومقومات جديدة ، قوامها تجاوز كل مظاهر التحيط والتذبذب التي تواجهها هذه السيكولوجيا إن على مستوى التاريخ والهوية أو على مستوى الإبداع والإنتاج أو حتى على مستوى الاستثمار والمارسة .

فعلى أساس أن السيكولوجيا المعهول بها عندنا هي سيكولوجيا مستوردة في صيغها الكلاسيكية المتزايدة ، نستهلكها دون أن نفهم في إنتاجها ، نتدولها دون أن نمارسها في أرض الواقع ، سيكون من العبث أو التهور العلمي المراهنة على تسييرها خدمة قضايا الإنسان ومشاكل المجتمع وذلك لإسباب واعتبارات عديدة ستفصل فيها مختلف مقالات وأبحاث هذا العدد التي تفضلت بها ثلاثة من الزملاء الباحثين العرب المشغلين بعلم النفس ، وبיהם منها بالخصوص ما يلي :

* وضعيتها المتأزمة نظراً لواطن عقمهها وضفها ومتها الإخفاقها وفشلها ، سواء على مستوى تراكماتها المعرفية أو نتائجها التطبيقية . فهي تشكو من نواقص وقصورات عديدة تترجمها بشكل أساسي معالم الليس والغموض في المفهوم والمدلول وملامح العقم والضعف في الإبداع والإنتاج ومتها الإخفاق والفشل في المسار والتوجّه ، فضلاً عن سمات المحدودية وعدم الفعالية في الحصيلة والترافق .

ArabPsyNet Journals Guide English Edition



www.arabpsy.net/HomePage/Psy-Reviews.htm

دليل المجلات النفسية العربية

الإصدار العربي

مجلة المعلوم النفسية العربية	
مجلة المعلوم النفسية العربية	
Journals	ال ISSN: 2000-0000
Arab Psy Review	الطبعة: 17 - Winter 2008
Arabic Version	اللغة: العربي
Journal of Psychology	ال ISSN: 2000-0000
Post of opinion	الطبعة: 17 - Winter 2008
What the best is to do with your life in 2008	اللغة: العربي
Arab Psy Review	ال ISSN: 2000-0000
Arabic Version	الطبعة: 17 - Winter 2008
Journal of Psychology	ال ISSN: 2000-0000
Post of opinion	اللغة: العربي
What the best is to do with your life in 2008	الطبعة: 17 - Winter 2008

www.arabpsy.net/HomePage/Psy-Reviews.Ar.htm